Coptology

قراءة في نتاج ما حدث

(٥)

لماذا تعذَّرت المحاكمات، وانعدم الحوار؟

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠١٩

www.coptology.org

المراقب لأحداث ٤٠ عامًا في تاريخ الكنيسة القبطية، هي فترة بطريركية الأنبا شنودة الثالث، يمكنه أن يلحظ كم الدمار الذي أصاب كثيرًا من حقول الخدمة في الكنيسة القبطية. ونحن لسنا بصدد حصر ما جرى من تدمير، وإنما نكتفي بأن نشير إلى الأهم –من وجهة نظرنا– دون أن نمنع حق القارئ في أن يكتشف –قياسًا على واقع الأمور التي يحياها الآن– مناطق أخرى تم تدميرها مازلنا نحصد ثمارها المرة، ويبدو أن هذه المرارة سوف تستمر معنا لبعض الوقت.

أولاً: تهميش دور المجمع المقدس بوضع الأنبا بيشوي سكرتيرًا لمدة ٢٥ عامًا، في الوقت الذي لم يقم فيه سكرتير المجمع بأي دور سوى تنفيذ ما يطلبه البابا منه. والدليل على ذلك ما قام به من محاولات تشويه القمص متى المسكين وكل معارض يأتي على ذكرة البطريرك في أحاديثه. وفي ذات الوقت إحجام الأنبا شنودة –خوفًا– عن المواجهة في محكمة كنسية أو حتى الحوار واكتفائه بما كان يُنشر في مجلة الكرازة، وفي محاضرات القسم المسائي للكلية الإكليريكية، وإلا لماذا لم تتم محاكمة واحدة لواحد من هؤلاء طوال هذه المدة؟

ونرى أن هذا الاحجام، وتعذُّر المحاكمات وانعدام الحوار، يقوم على عدة أسباب، منها على سبيل المثال لا الحصر:

١– انعدام المعرفة بالتاريخ الكنسي وكتابات الآباء، ولو كتبتُ الجهل المطبق بدلاً من انعدام المعرفة، لما كان هناك أدنى مبالغة، ويكفي أن قداسته لم يكن يعرف أن الشمامسة كانوا يحملون الإفخارستيا لمن كانوا في السجون من المسيحيين، حسب شهادة يوستينوس الشهيد، ولكن لأن الأب متى المسكين كتب هذا في أطول دراسة عربية عن الإفخارستيا، أصبح إنكار قداسة البابا لهذه الحقيقة التاريخية هو السند الشرعي للاتهام بالعبث بالعقيدة والطقوس، وهو بكل يقين اتهامٌ لا صحة له لأن أسلوب توزيع السرائر ليس عقيدة، بل

هو نظام كنسي طقسي، تشهد له رسالة القديس باسيليوس الكبير بأن سر الشكر كان يُحفَظ في البيوت، وأين؟ في الإسكندرية، بحسب ما ورد في الرسالة (رقم ٩٣).

٢- نقصٌ مخيف في المراجع الأساسية في كتب التاريخ الكنسي وتاريخ الليتورجية، وسيادة الرأي الأُحادي للبطريرك على كل ما كان يعلِّم به دون مرجعية، بينما كانت جامعات أوربا وأمريكا واليونان قد سبقتنا في نشر النصوص والدراسات.

٣- تهديد كل من يكتب بأنه هرطوقي أو بروتستانتي دون سند وبدون دليل واعتبار الرأي الشخصي للأنبا شنودة "عقيدة أرثوذكسية"، وهو رأيٌ كشف عن جهل.

ثانياً: سيامة حرسٍ من الأساقفة الذين لم يكن لهم أي معرفة كنسية سوى ما يكتبه البابا، إلا بعضُ الذين أفلتوا من فخ تجييش زمرة تحيط بالقيادة وتردد ما تقوله القيادة، ولازالت حتى هذه اللحظة تتشدق علانيةً بما يسمونه "تعليم الأنبا شنودة"، دون أن يراجعوه، ولو من طرف بعيد على التسليم الكنسي.

ثالثاً: ماذا يحدث عندما يصبح رأي القائد هو الإيمان أو العقيدة؟ والجواب معروفٌ لكل من تابع أحداث ٤٠ عامًا. أُغلِقَت أقسام معهد الدراسات القبطية ما عدا قسم الفن وقسم الموسيقى. وغاب قسم التاريخ الكنسي. وتولى الأنبا بيشوي قسم اللاهوت خلفاً للأنبا غريغوريوس! ونترك للقارئ المقارنة بين خبرة وحياة كل منهما، بين عالِم جليل وهو الأنبا غريغوريوس ومطران كفر الشيخ الذي لم يدرس أي علوم كنسية، وصاحب الفتوى بأن حلول الروح القدس على القديسة مريم يعني تجسد الروح القدس! ولازال الرأي هو المرجعية الوحيدة، وتراه الآن في غباء الذين يدافعون عن تاريخ عيد الميلاد حسب التقويم الشرقي واعتبار أن ٧ يناير وليس ٢٩ كيهك هو تسليم الآباء، وأنه من الإيمان، دون أن يكون بالفعل لا علاقة له بأي عقيدة. فلم يكن عيد الميلاد معروفًا في الكنيسة الجامعة حتى القرن الرابع الميلادي، وكان ١١ طوبة عيد معمودية الرب في الأردن هو أقدم من ٢٩ كيهك، ودراسات المؤرخين القدامى والمعاصرين موجودة لدينا تحكم على ما نقول. ولكننا أصبحنا كما يقول المثل كمن "يؤذن في مالطة".

رابعاً: وثمةُ مثالٍ آخر لانعدام البحث التاريخي واللغوي وهو محاولة د. أميل ماهر بعث اللغة القبطية كلغة حديث، وكان هجوم الذين تمسكوا باللهجة البحيرية وشكاية د. أميل ماهر بأنه صاحب أجندة سياسية، فتم إقصاء د. أميل ماهر ورسامته قسًّا ليخدم في أمريكا ودُفِن مشـــروح بعث اللغة القبطية كلغة تخاطب. ولك أن تســـتعجب عزيزي القارئ، كان أحد الأدلة على تجريم المشـــروع هو أن البابا كيرلس كان يصـــلي باللهجة البحيرية، مع أنني كنت أسمع الأستاذ يسى عبد المسيح يصلي التسبحة مع القمص مينا البراموسي المتوحد باللهجة الصعيدية. ولكن الرأي الأحادي وعدم الرغبة في التجديد كان ولازال له السيادة، وهو المحرك ومصدر كل ما تقوم به عصاباتٌ مبرمجة للدفاع عن الرأي الأحادي واتهام كل من له باعٌ في البحث والترجمة بأنه هرطوقي.

خامساً: إثارة زوابع الشك في ترجمات الآباء إلى اللغة العربية. وتظهر قدرة البابا شنودة الصحفية عندما يسأل: هل قرأوا كل الآباء؟ وغيرها من الأسئلة التشكيكية التي تجد صـــداها في عقول الرعاع. ومن يقول إن ترجمة نص من اليونانية إلى العربية ترجمة غير ســـليمة يجب أن يكون هو نفســـه يعرف اللغة اليونانية، ولم يكن البابا شـــنودة يعرف لا اليونانية ولا القبطية، ولكن التشـــكيك وإثارة الرعاع كانت هي محور الهجوم على الذين درسوا وتعبوا، واكتشفوا الكنوز المخبأة، وعندما أردوا إشراك الكل في الغنى كوفئوا بالاتهام في أعز ما يملكون، وهو الإيمان. ولم أكن أسعى إلى منصب، بل كان همي الأكبر والأخير هو نشـر تراثنا القبطي. وعندما نشـرت مقدمة مع ترجمة ثلاثة فصـول من كتاب المبادئ للعلامة أوريجينوس، ودراسة كتاب تجسد الكلمة للقديس أثناسيوس، كان الجزاء هو منعي من تدريس الآباء وأن أقوم بتدريس اللغة الإنجليزية. ولم أقبل. وقال لي الأنبا شـــنودة إن بحثي في المعمودية هو بحثٌ في الطقس وليس في الآباء، فأدركت مقدار الهوة التي تفصـــل بيننا لأن تاريخ الطقوس له مرجعية واحدة، وهي ما سجَّله آباء الكنيسة الجامعة. هذا لا يختلف بالمرة عن القول بأننا لا نحتاج إلى الآباء بل نحتاج إلى الليتورجية حتى تنطلق الميكروفونات بكل ما يمكن أن يصل إليه خيال المتكلم من خيالات بلا تاريخ.

+ + +